

## " قيمة كل امرئ ما يحسن "

عدنان الأمين \*\*

تقول ميسون سكرية: " وضعت كل ما تعلمته في الجامعة الأميركية من حلول للتعليم جانباً وقررت التقرب من التلاميذ لمعرفة أحلامهم وتطلعاتهم وهواياتهم " (ص ٩٠). وتقول ليلى إسكندر كامل: " سرعان ما اتضح لي أن كل النظريات التي نعمل بها لا تنطبق على الوضع الذي وجدت نفسي فيه في حي الزبالين بالمقطم " (ص ١٢٥).

كانت ميسون سكرية تعرض تجربتها في تعليم اللغة الإنكليزية لحوالي ١٥ تلميذاً و تلميذة من أطفال مخيم شاتيلا في ضواحي بيروت، وتبين لها أن الطريقة الممكنة لكسي يتعلم هؤلاء هي الانطلاق من تجربتهم و أحلامهم، فكل منهم يعرف عن نفسه بكونه من هذه القرية أو تلك في فلسطين، ولم يعرف أحد عن نفسه باعتباره من المخيم، لذلك ارتأت أن تفسح لهم فرصة المراسلة مع أطفال في فلسطين عبر الإنترنت. ومن الأنشطة التي قامت بها أنها علقت لوحة كتب عليها: "نحن ما نعمل وليس ما نقول فهل أنت فلسطيني؟". حيث كان كل طفل كلما قرأ كتاباً يضع أمام اسمه إشارة على أحد حروف كلمة "ف.ل.س.ط.ي.ن.". تباعاً. وبالتالي يصبح فلسطينياً بما قرأه وليس بما ولد عليه.

أما ليلى إسكندر فقد انتقلت فور فشل تجربتها في التعليم طبقاً للإرشادات الجاهزة إلى التعليم عبر اللعب و الحكايات و الرحلات الترفيهية. و بذلك "انفتح كنز" لم تكن تدركه لدى هؤلاء المهمشين، من قدرات تعبير و تحريك عن طريق التمثيل و اللعب و الأغاني و القصص، واكتشفت كيف أن هؤلاء، أطفال الزبالين الذين يعيشون في جو عائلي واجتماعي مهده يومياً بالكوارث وفي جو مهنة تحكم عليهم الاستيقاظ في الفجر لاصطحاب آبائهم في شوارع القاهرة والعودة عندما تكون هذه الشوارع مكتظة بالسيارات يتلقون الشتائم من سائقها... لديهم حب للحياة وللتعلم ومحبة للناس والآخرين وابتسامة وفرحة. واكتشفت على الأرجح - فهي لم تقل ذلك - أن نظام التعليم "الرسمي" عادة ما يكمل عملية التهميش الاجتماعي عن طريق الاستبعاد المدرسي، بما يؤدي في ظروف معينة إلى استخراج عدوانيتهم.

\* منير فاشة ( تحرير ): قيمة كل امرئ ما يحسن، وقائع وتأملات حول اللقاء التربوي الأول للمنتقى التربوي العربي ٢٠ - ١٩٩٩/٥/٢٣، بيروت - الكويت، الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، ٢٠٠١، ص ١٧٤.  
\*\* أستاذ العلوم التربوية - الجامعة اللبنانية.

في كتاب "قيمة كل امرئ ما يحسن" رواية أخرى عن تجربة سيدة يمنية (جلييلة شجاع الدين) كلفت بإدارة مدرسة وهي ما تزال شابة (٢٠ سنة) وكيف أنها اتجهت، نظراً لغياب التيسر الذي يسم عادة كبار السن الذين يكلفون بالإدارة المدرسية، نحو إعطاء الهيئة التعليمية صلاحيات المشاركة في اتخاذ القرارات وأعطت الطالبات فرص التعبير الحر بشتى الأشكال (رسم، غناء، قصة، شعر، مسرح، تمثيل، صحافة، إذاعة مدرسية، الخ...). أدى ذلك إلى تكون إيمان عميق لديهن بقدراتهن وبإمكانية التغيير، في مجتمع يتسم بالمحافظة الشديدة. لذلك، عندما صدر قرار بتغيير المديرية إبان سفرها، اعتصمت الطالبات ورفضن القرار. ووقف معهن الأهل والهيئة التعليمية. وفي اليوم السابع للاعتصام اقتحمت قوى الأمن المدرسة، وحصلت مواجهة بين الطرفين. وبنتيجة "معركة مشهودة" انتصرت الطالبات وتراجعت قوى الأمن. وعندما عادت المديرية واستفسرت عن موقف الطالبات قلن: نحن أصحاب حق، ونحن أحرار، لم نكن ندافع عنك وحدك إنما عن وجودنا وعن القيم النبيلة التي تعلمناها. (ص ص ١٤٩-١٥٣).

عرضت في هذا الكتاب روايات عن تجارب تربوية من لبنان والبحرين والسعودية والكويت ومصر وفلسطين والأردن وسوريا، قام بها معلمون ومديرو مدارس وأكاديميون وفنانون ورؤساء جمعيات. وهي خلاصات لما قدم في اللقاء الأول للملتقى التربوي العربي في بيروت (١٩٩٩). وثمة كتاب ثانٍ يعرض تجارب من الطراز نفسه، مما ألقى في اللقاء الثاني للمؤتمر والذي عقد في عمان العام ٢٠٠٠. وكتاب ثالث قيد الطباعة عن أعمال اللقاء الثالث في شرم الشيخ، وهو قيد الطباعة. وكتاب رابع قيد الطباعة أيضاً عن أعمال اللقاء الرابع الذي عقد في أغادير (المغرب) ربيع العام ٢٠٠٢.

صاحب الفكرة و مدير الملتقى، منير فاشة، وهو أستاذ زائر في جامعة هارفارد، مشدود بقوة إلى الجذور وما فيها من قدرات كامنة في الإبداع والنمو الداخلي، ومننقد بشدة "للتنمية" المقولية و للأجوبة الجاهزة والأنماط الاستهلاكية، وللنظم الرسمية للتربية التي يقوم جل عملها على كبت تلك القدرات وعلى زرع نماذج كلامية تقضي في نهاية المطاف إلى تعزيز التخلف المناسب للشركات والأنظمة العالمية المستفيدة.

يعتقد فاشة أن "قيمة كل امرئ ما يحسن" (علي بن أبي طالب) و ليس ما يقول، ما يمكن أن يعطيه وليس ما يأخذه، وفي القول المعبر عن العمل، وأن هناك مبادرات وبذور ورؤى لدى البشر يجدر إفساح المجال لها لكي تظهر بما هي إيجابية و بناءة، وبناء على معايير أصحابها وليس بناء ما يريده الغير. لذلك لا يصدر الملتقى أحكاماً ولا تنتهي لقاءاته بتوصيات، باستثناء ما يوصي به المجتمعون أنفسهم إذا أرادوا (أنظر تقديم فاشة لفكرة الملتقى ص ص ١١-٣٤).

أوافق فاشة تماما على فكرة إطلاق المبادرات التربوية، لذلك انضممت إلى اللجنة التنسيقية للملتقى و حضرت جميع لقاءاته، و ما يهمني فيها الأفعال التي تجعل التعلم يعيش و ينمو من خلال اندماج الطلبة في العملية التربوية استنادا إلى نواتهم وتجاربهم وحرثهم. مثل تلك التي توقفنا عندها أعلاه أو مثل تجربة مدارس الظهران الأهلية التي تعرضها مديرتها د. سالي التركي، والتي ملخصها الانطلاق في تخطيط العملية التعليمية من توقعات واتجاهات الطلبة.

لكن المشكلة تبدأ عندما نذهب بهذه النزعة في البحث عن الجذور إلى نهايات تفضي إلى أسوأ بكثير مما نحن فيه. حيث يمكن أن تتحول الجذور إلى أصول، أو حيث يمكن أن يصبح اللا تعليم (الأمية) -تقيض التعليم الرسمي- بديلاً أفضل عن هذا التعليم الذي نتفق على وظائفه النخبوية و الكبتية و التهميشية حالياً، في مثل هذه الحالة تصبح النزعة "الجذورية" مقولية مثلها مثل النزعة التغريبية. كلاهما يقدم أجوبة جاهزة وقاهرة. ولتوضيح فكرتي أعود إلى تجربة ميسون سكرية التي قالت أنها رمت جانباً ما تعلمته في الجامعة الأميركية.

كان الأطفال يرجعون كلما طرح سؤال إلى "ملجأ" فلسطين. هناك الأمل والحلم.. والجنة، هناك الجواب، لم تقبل سكرية بهذه الطفولية في التفكير، ودعتهم إلى مراسلة أطفال هناك، حيث اكتشفوا أن أصدقاءهم المثاليين يعيشون في ظروف لا تقل قساوة عن ظروفهم. وفي مناسبة أخرى بدا للمعلمة التي تفكر وتبادر أن الأطفال يعتقدون أن المسلم الحقيقي هو ذلك الذي يعيش كما عاش المسلمون الأوائل (أيام الرسول و الخلفاء الراشدين)، وهو اعتقاد بثه فيهم شيوخ أصوليون، وربما وافقهم عليه أهلهم، تلك هي الجذور. لكن سكرية ابتكرت نشاطاً يقوم على "دراسة" تطور التراث الفلسطيني من قبل الطلبة، واحتاج ذلك إلى قراءات و استقصاء الأهل و هذه جذور أيضاً. حتى تبين للطلبة أن الأمور تغيرت كثيراً من زمن إلى زمن: الغناء، اللباس، الرسم، الشعر، الخ.. و أن التغيير سنة الحياة.

لو كانت سكرية غير متخرجة من الجامعة الأميركية، لو كانت شبيهة متعلمة، لكانت ذهبت مذهب الشيوخ، ولعززت فيهم تلك الأجوبة الجاهزة غير المنتجة في التعليم الرسمي. ثمة في التعليم الرسمي أجوبة جاهزة ، رمتها سكرية جانباً، ولكن فيه أيضاً ذخيرة من الثقافة والمهارات واللغات بقيت بعد أن ذهبت أيام الامتحانات و التوجيهات. ومهما بلغ سوء التعليم الرسمي (النظامي) فإن ما يقدمه لا يضاهي أمام ما تقدمه الأمية. إن الأجوبة الجاهزة التي تقدمها "الجذور" أدهى وأمر.

تقول ندى مغيزل نصر أنك تستطيع أن ترفض أفكار منير فاش، ولكنك لا تستطيع إلا أن تقر بأنه يثير فيك جملة من التحديات الذهنية أولها أن تضطر إلى مراجعة ما أصبح في ذهنك بديهياً.

ومن دون شك فإن فكرة المبادرة بما هي إطلاق لقوى التجديد في نواتنا، من خلال معالجة ما نتعلمه من معارف حديثة، ومعالجة ما تقدمه الجذور، وتجاوزهما في الوقت نفسه، لهو فكرة جوهرية.